



رسائل الثورة السورية المباركة (96) إصلاح أهل السلاح

كتبت مرة أقول إن سوريا لا تريد مقاتلين من خارجها، فعاتبني بعض الأفضل عتاباً رقيقاً لأنني حَرَمت بدعوتي من يريد الجهاد من غير السوريين من فرصة الجهاد الصادق وحرمت سوريا من خبراتهم وخیراتهم. وليس الأمر كذلك، فإن سوريا لا تحتاج إلى الرجال حقيقة، إنما يكفيها أن تدمّرها بالمال والسلاح، أما المقاتلون من أهلها فما أكثرهم وما أشدّ رغبتهم في القتال لو امتلكوا السلاح.

هذه الأولى، الثانية هي أن دخول مقاتلين إلى سوريا من غير أهلها من شأنه أن يعُدّ قضيتها أمام القوى الدولية. ولا تظنوا أننا نهتم بتلك القوى لسواد عيونها أو لزرقتها، إنما يهمنا أن لا يعوق عائقٌ من أي نوع الجهود التي تُبذل لتوفير السلاح، ولا ريب أن امتلاء الساحة بمقاتلين متعددي الأصول والموارد من شأنه أن يعطل تلك الجهود.

الثالثة أهم مما سبقها، وهي التي لها علاقة بهذه المقالة، ودعوني أولاً أمثل بمثل: في المناطق الاستوائية تنتشر أنواع الحُمّيات -كالمalaria والبلهارسيا ومرض النوم والعمي النهري- فيكثر وجود الأطباء المختصين بالأمراض الاستوائية (المدارية)، ولو أن طبيباً من أطباء بريطانيا (أو غيرها من البلاد الشمالية الباردة) تطوع للمساعدة في بعض المناطق الإفريقية التي تستوطنها تلك الأمراض وسافر إليها من غير سبق تأهيل ولا تدريب فقد يكون عاجزاً عن المساعدة، بل إنه قد يخطئ في التشخيص ويصف دواءً غير الدواء فيضرّ ولا يفيد.

في سوريا أمراض كثيرة تحتاج إلى أطباء أخصائيين، ولكنها ليست من أمراض الأبدان التي يعالجها الأطباء، إنها من أمراض النفوس التي يعالجها الدعاة، وهي مما يعرفه أهل سوريا ويستطيعون علاجه أفضلَ كثيراً من غيرهم من لا يعرف تلك الأمراض ولم ينشأ وسط المصابين بها من أهلها. الغرباء عنا -من إخواننا في الدم والدين- لا يعرفون أمراضنا وسوف يفشلون في علاجها، بل يغلب على الظن أن يَعْجلوا بالعلاج الخطأ فيسيئوا من حيث ي يريدون الإحسان.

أرسل إلى أخ كريم من غير السوريين منذ شهور يطلب مني أن أكتب عن المقاتلين الذين يحملون البندقية بيد ويحملون الدخينة (السيجارة) يدخّنونها باليد الأخرى؛ قال: كيف ينصر الله أولئك المدخّنين؟ لقد استنكر الأخ عليهم أنهم يدخنون التبغ، فكيف لو علمت -يا أخ الإسلام- أن فيهم من يدمن الحبوب المخدرة وأن فيهم من لا يصلّي وفيهم من يرتكب

الموبقات؟ وماذا كنتَ صانعاً لو أنك عاشرتهم وعشت بينهم؟ لا أعلم عنك تحديداً، إلا أنني أعرف أن كثريين من المتدربين المخلصين الذين لا يعرفون أولئك الناس سيعالجون فيعالجون، فيبدؤون بما يرونه "المرض" وما هو سوى "العرض"، فيتنازعون هم وأهل السلاح ويقع الخلاف والتفرق ويصيّبنا الوهن.

الطبيب لا يصنع ذلك. إنه إذا جاؤه بالمريض يهدي من الحمى - مثلاً - لم يجلسه في كرسى ويجلس في كرسى مقابل ليناقشه في صواب هذيانه من خطئه. إنه يهتم أولاً بأن يُخفض حرارة المريض حتى لا يتلف الدماغ. فإذا فعل وانخفضت الحرارة بدأ بتحقّيّي أسبابها الباطنة، ثم عالج الأسباب بما يعرفه الطب من عقاقير. إنه يركز همه لطبيعة المرض، فإذا عولج عاد الجسم إلى حرارته الطبيعية وانقطع المريض عن الهذيان، وعاد المريض معافى سليماً نافعاً لمجتمعه وللناس. هذا ما يصنعه الطبيب الحاذق الخبر بالمرض، أما المعالج الجاهل العجول فإنه سينشغل بالرد على هذيان المحموم ويففل عن الحمى التي تفتّك بالبدن، أو يتجاهل سببها الباطن فلا يدركه ولا يعالجها، وقد يتعرّج بالتشخيص ويقدم العلاج الخطأ فيموت المريض.

لا أحد يملك أرقاماً دقيقة عن عدد المقاتلين الذين يحملون السلاح في سوريا اليوم، ولو شئتُ التقدير لعددهم عشرات ألف، ربما ستين ألفاً أو سبعين، فمن أين جاء أولئك المقاتلون؟ إنهم يأتون من ثلاثة مصادر، الأول والثاني هما سبب العدوى، والثالث هو سبب العلاج بأمر الله، لو أحسن أصحابه الفهم وأحسنوا العمل.

المصدر الأول الذي يأتي منه المقاتلون الأحرار هو الجيش السوري، فهم جنود نظاميون منشقون آثروا التخلّي عن النظام المجرم والاصطفاف مع ثورة الأحرار. ماذا تنتظرون من عناصر الجيش النظامي؟ هل تعرفون البيئة التي منها يخرجون؟ إنها واحدة من أقذر البيئات التي يمكن أن يعيش فيها إنسان على ظهر الأرض. الكفر في الجيش السوري هو ملح الكلام، فلا تكاد تخلو من كلمة كفرية فاحشة جملة طولها مئة كلمة، ولا يكون العسكري مقبولاً بين الرفاق حتى يبلغ أسفل قعر السفاله الأخلاقية فيستمرّي الفواحش كلها والموبقات، ما تعلمون منها وما لا تعلمون. مع ذلك فإن العسكري الذي يتخذ قرار الانشقاق وينفذه جدير بأن يوضع في العيون، فإنه قد علم أن ذلك القرار هو أخطر قرار في الحياة، وقد يكون الأخير، فكم من منشق لم يقطع الأمتار العشرين بين العبودية والحرية، وكم من منشق وقع في الأسر قبل أن يبلغ بـ النجاة فذاق العذاب الأليم الذي ينتهي بالموت في كثير من الأحيان، عليه رحمة الله.

أولئك العسكريون - من ضباط وجنود - فيهم من هو على خلق ودين، بل إن فيهم من هو في أعلى مقامات التدين والتخلّق بكراءم الأخلاق، لم تلوّه البيئة التي عاش فيها ولم تُصبه بالأمراض. ولكن الأكثرين ليسوا كذلك؛ الأكثرون أصحابهم العدوى وفتكت بهم الأمراض. إنهم ليسوا أحسن الناس تربية ودينًا بالتأكيد، ولكنهم من أصدق الناس سريرة ومن أشجع الناس شجاعة على ظهر الأرض. إنهم يحتاجون إلى صبر لعلاج فساد تربيتهم كما يحتاج المريض إلى صبر لعلاج فساد صحته؛ أرأيتم طيباً احترق مريضه لشدة مرضه أو تخلّى عنه ورماه على قارعة الطريق؟

المصدر الثاني الذي يأتي منه الجنود الأحرار هو "العصابات" الشعيبة التي تنتشر عادة في الأحياء الفقيرة في كل المدن (من نوع فتوّات وذكرية الحارات)، وهي تضم في الغالب شباناً ورجالاً من أهل الشجاعة والمرءة الذين لم يجدوا لهم مكاناً في المجتمع. هؤلاء ليسوا مجرمين سلبيين ولا يرتكبون الجرائم الشنيعة والموبقات الكبار. ربما يقتصر شغفهم على السطو والتهريب وتحصيل الإتاوات، ولو أنهم عاشوا في بلاد حرّة تحترم مواطنها وتمنحهم الفرص العادلة في الحياة الكريمة لكانوا (أو كان أكثرهم) من كرام الناس ومن بُناة الوطن، ولكن النظام الآثم الذي استأثر بالخيرات وأثر بها عبيده المقربين حرّم أولئك المواطنين الآخيار من خيرات الوطن وألّجأهم إلى ما رأيتم. النتيجة الحتمية كانت انتشار الجهل بين أولئك الناس ووقعهم في الشر والفساد، فصار منهم من يدمّن أنواع الحبوب المخدرة ومن يقع في الحرام، ونشأ كثيرون بعيدين

عن الله وعن الخلق القوي.

هل تعرفون شهيد حمص الشهير، بلال الكن، الذي لقي الله على جبهته عالمة السجود؟ لو أن القضاء تقدم به ثلاثة أشهر لمات عاصيًّا لا يعرف الله ولم يسجد له سجدة، ولكن الله أكرمه فهداه واستشهاده وهو على طاعة وخير، – رحمة الله – .
كم من بلال يعيش بينما على ضلاله ولا يحتاج إلا إلى التوجيه الجميل والحكمة في الخطاب!

المصدر الثالث الذي يأتي منه الجنود الأحرار هو المجتمع السوي الذي ينتهي إليه ويعيش فيه غالبية السوريين.

إنهم المتطوعون الذين يضحى الواحد منهم بحياته المستقرة ويهاجر أسرته ويبعد عن والديه وعن زوجته وينتهي ليصبح جنديًّا من جنود جيش التحرير، بارك فيهم الله. هؤلاء عامتهم من المتفقين وكثير منهم، أو أكثرهم على التحقيق، من المتدينين الملزمين الذين يملكون الوعي والعلم والحماسة والإخلاص. أولئك هم الأطباء.

يا أيها المتدینون الملتزمون الواقعون المخلصون من حملة السلاح، من متطوعين و منتسبين عن جيش الاحتلال الأسدية، يا أيها الكرام: إني لا أجد للمصابين أطباء سواكم، ولا أكاد أقول إلا أن علاج أصحابكم أمانة في أعناقكم، بل إنه فريضة عين على كل قادر منكم، بل أنه فرصة الفرص والكنز الذي لو ضاع لم يك يعوض في السنين الطوال. إياكم، إياكم أن تهدروا الفرصة، وإياكم أن تضنوا على المرضى بالعلاج.

كنت أتحدث مرة مع أحد مجاهدي الجيش الحر في دوما، وعرفت أنه من منطقة أخرى في سوريا، فسألته: لماذا تركت منطقتك وجئت تقاتل هنا؟ أليس أهل كل منطقة أولى بمنطقتهم؟ ثم أليس التحاق المقاتل الحر بمنطقته أكثر أمناً للطرفين، له ولمضي فيه، لأنه يختلط هناك بأهله فلا يكون هدفاً مكتشوفاً لحملات الأمن ولا يعرض مضي فيه إلى الخطر؟ قال: اخترت ريف دمشق لأن المقاتلين هنا على درجة كبيرة من التدين والالتزام. قلت له: لكن أنت مطالب بأن تدعوا أهل منطقتك، لأن تعليم الجاهل حقًّ على العالم ولأن الدعوة واجبة في مواطن الحاجة إليها، فإذا تخليت أنت وأمثالك عن دعوة أهلك وهدايتهم إلى الحق – بإذن الله – فمن يدعوهم؟ أما إنك لتشبه الطبيب الذي يترك المستشفيات لأن قاطنيها مصابون بالأمراض والأوبئة وينذهب إلى البساتين والرياض لأن زوارها معافون أصحاء.

هذه هي القاعدة الأولى: مسؤولية دعوة كل حي تقع على أهل الحي أنفسهم، الأقرب فالأقرب، فلا يتخلّى أحدٌ عن أهله ولا يزهد في دعوتهم، فهو الأقدر على فهمهم والتواصل معهم وتوصيل الفكرة والدعوة إليهم، وصبرُه عليهم – ولو كانوا أبعدَ عن الدين والصلاح من غيرهم – فيه الأجر الأكبر – إن شاء الله – .

القاعدة الثانية: العلاج يحتاج إلى صبر وأناة ولا يتم إلا في الوقت الطويل، فلا تجعلوا على إخوانكم المسلمين الذين يأتونكم على الحالة التي وصفتها آنفًا. ألم نتفق على أن العساكر المنشقين يخرجون من أسوأ وأقذر البيئات على وجه الأرض؟ فهم إذا وصلوا إليكم كانوا كأشد المرضى مرضًا. هل يأتيك مريض مُدْنَف قد فتك به المرض فتأمره بالمشاركة في سباق الماراثون؟ إنه بالكاد يستطيع أن يقف على رجليه، ولو أنه بدأت بعلاجه العلاج الحاذق فسوف يقترب من العافية يوماً بعد يوم، فيمشي في الأيام التالية خطوات بمساعدة وتدعم، ثم يمشي قائماً وحده بلا سند، وربما مشى بعد شهر مسافة ميل في الطريق، وقد يبدأ في الهرولة بعد ثلاثة أشهر، فإذا انقضت ستة أشهر من العلاج وصلَّبَ عوده فادفعه إلى الماراثون ولا بأس عليك. هذا هو التدرج المطلوب في العلاج، وكذلك فافعل مع الذين أصابتهم أمراض النفس فساعات أخلاقهم ورقة دينهم، اصبر عليهم واحتمل منهم ولا تتعجل، وتنذر أن الإسلام رَبِّ الجماعة المؤمنة في بضع عشرة سنة، لم ينقلها من الكفر إلى الإيمان في أسبوع أو أسبوعين ولا في شهر أو شهرين.

القاعدة الثالثة: ابحثوا دائمًا عن الأسلوب الحكيم وعِظوا بالحسنى. لن يبلغ إخوانكم المسلمين – مهما ساءت أخلاقهم – ما بلغه فرعون من السوء، ولقد أمر الله نبيه الكريمين، موسى وهارون – عليهما سلام الله – بمخاطبته بالخطاب اللطيف

الرقيق ودعوته بالكلام **اللِّيْنَ الرَّفِيقَ**، فإذا كان ذلك هو ما اختاره الله لفرعون فلا ريب أن جنود الجيش المنشقين والعسكريين المتطوعين يستحقونه ويستحقون خيراً منه.

حدثني أخ من المجاهدين أنه سمع لفظاً كفرياً من أحد قادة الكتائب (في منطقة لا أريد أن أسميها)، فأنكر عليه وعنفه، فطرده القائد من منطقته ومنعه من دخولها! لو كنت مكان ذلك الأخ وسمعت لفظة الكفر من صاحبي لما عنفته ولما اختلفت وإياه، بل ربما أجبته بجواب معجل أو جواب مؤجل. الأول كان أقول له: ألسنا صديقين ورفيقاً سلاح؟ سيقول: بلـ، نحن كذلك. سأـلهـ: هل يـصـحـ أن تـسـبـ أـمـيـ؟ـ ربماـ فـوجـيـ وـقـالـ:ـ بـالـطـبـعـ لـاـ أـفـعـلـ.ـ أـقـولـ لـهـ:ـ هـلـ تـسـبـ أـخـيـ؟ـ هـلـ تـسـبـ أـخـيـ؟ـ بـعـدـ ذـلـكـ سـأـقـولـ لـهـ بـكـلـ مـاـ أـسـتـطـعـ مـنـ وـدـ وـاسـتـرـخـاءـ:ـ وـأـنـاـ كـذـلـكـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ أـسـبـ أـمـكـ أـوـ أـبـاـكـ أـوـ أـخـتـكـ أـوـ أـخـاـكـ،ـ لـكـ أـنـ أـنـتـ آـذـيـتـنـيـ بـأـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ.ـ إـنـ رـبـيـ أـحـبـ إـلـيـ مـنـ أـمـيـ وـأـبـيـ وـمـنـ إـخـوـتـيـ وـأـخـوـاتـيـ وـمـنـ نـفـسـيـ وـزـوـجـتـيـ وـأـوـلـادـيـ،ـ فـلـمـاـذـ آـذـيـتـنـيـ بـسـبـ؟ـ

أو **أـجـيـبـهـ جـوـابـاـ مـؤـجـلـاـ**.ـ سـأـنـتـرـ لـحـظـةـ يـشـتـدـ فـيـهـ الـقـصـفـ وـيـحـمـيـ الـوـطـيـسـ،ـ فـإـذـاـ سـمـعـتـهـ يـذـكـرـ اللـهـ وـيـدـعـوـ اللـهـ سـأـقـولـ لـهـ باـسـتـغـرـابـ مـصـطـطـعـ:ـ لـمـاـ تـطـلـبـ الـعـوـنـ مـنـ عـدـوـ؟ـ سـيـقـولـ مـدـهـوـشـاـ:ـ عـدـوـيـ؟ـ اللـهـ عـدـوـيـ؟ـ هـلـ جـنـتـنـ؟ـ سـأـقـولـ لـهـ بـكـلـ هـدـوـءـ:ـ سـمـعـتـكـ تـسـبـ حـافـظـ وـبـشـارـ فـعـلـمـتـ أـنـهـمـ لـكـ عـدـوـ،ـ ثـمـ سـمـعـتـكـ تـسـبـ اللـهـ بـالـأـلـفـاظـ نـفـسـهـاـ فـقـدـرـتـ بـالـقـيـاسـ.ـ أـنـهـ عـدـوـ كـالـعـدـوـيـنـ الـآـخـرـيـنـ.

أـنـاـ أـعـلـمـ أـنـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ الـهـدـوـءـ وـرـبـاطـةـ الـجـاـشـ وـإـجـرـاءـ حـوـارـ هـادـئـ كـالـذـيـ وـصـفـتـهـ فـيـ الـمـثـالـيـنـ السـابـقـيـنـ أـمـرـ عـسـيرـ غـيـرـ يـسـيرـ وـأـنـهـ يـحـتـاجـ إـلـىـ قـدـرـ كـبـيرـ مـنـ مـغـالـبـةـ الـنـفـسـ،ـ وـلـكـ مـتـىـ كـانـ عـلـاجـ الـمـصـابـيـنـ وـالـمـرـضـيـ مـنـ أـيـسـرـ الـأـمـورـ؟ـ أـلـيـسـ كـلـمـاـ زـادـ مـرـضـ الـمـرـيـضـ أـوـ إـصـابـةـ الـمـصـابـ زـادـتـ صـعـوبـةـ عـلـاجـهـ؟ـ لـوـ كـنـتـ طـبـيـباـ وـجـاؤـكـ بـفـتـيـ قدـ مـزـقـتـ الشـظـاـيـاـ بـطـنـهـ أـوـ اـخـرـقـتـ عـنـقـهـ فـلـاـ يـسـعـكـ أـنـ تـشـمـئـزـ وـتـنـأـيـ عـنـ الـعـلـاجـ لـأـنـ الـحـالـةـ عـسـيـرـةـ،ـ وـلـسـوـفـ تـبـذـلـ جـهـدـكـ وـتـخـيـطـ الـجـرـحـ وـلـوـ بـدـاـ لـكـ أـنـ فـرـصـةـ الـنـجـاحـ ضـئـيـلـةـ.ـ تـخـيـلـ أـنـكـ كـنـتـ فـيـ الـمـوـقـفـ الـذـيـ وـصـفـتـهـ قـبـلـ قـلـيلـ ثـمـ رـدـدـتـ بـأـحـدـ الرـدـيـنـ (ـالـمـؤـجـلـ وـالـمـعـجـلـ)ـ:ـ هـلـ تـظـنـ أـنـ يـخـتـصـ الرـجـلـ وـإـيـاـكـ أـمـ تـتـوـقـعـ أـنـ يـتـرـاجـعـ عـنـ ذـنـبـهـ وـأـنـ يـعـتـذـرـ مـنـكـ وـيـسـتـغـفـرـ اللـهـ؟ـ وـلـوـ أـنـكـ أـضـفـتـ عـنـدـهـ فـقـلـتـ لـهـ:ـ أـنـاـ أـعـلـمـ أـنـكـ لـمـ تـقـصـدـ مـاـ تـلـفـظـ بـهـ لـسـانـكـ،ـ وـأـنـ هـذـاـ مـنـ أـثـرـ الـعـهـدـ الـأـسـدـيـ الـمـظـلـمـ الـطـوـلـيـ الـذـيـ عـشـنـاهـ فـيـ سـوـرـيـاـ،ـ فـهـلـ تـحـبـ أـنـ أـذـكـرـ إـذـاـ سـهـوـتـ مـرـةـ أـخـرـىـ؟ـ هـلـ تـتـوـقـعـ أـنـ يـكـابـرـ وـيـرـفـضـ أـمـ تـظـنـ أـنـهـ سـيـوـاـفـقـ وـيـشـكـرـ عـلـىـ التـذـكـيرـ؟ـ

ربـماـ كـانـ الـمـجـاهـدـوـنـ الصـالـحـوـنـ الـمـتـدـيـنـ هـمـ الـأـقـدـرـ عـلـىـ عـلـاجـ إـخـوـانـهـمـ مـنـ حـمـلـةـ السـلـاحـ الـذـيـنـ يـحـتـاجـونـ إـلـىـ عـلـاجـ وـإـلـاصـاحـ،ـ لـأـنـ طـوـلـ الـاتـصـالـ وـقـرـبـ الـصـلـةـ يـمـنـحـانـهـمـ فـرـصـةـ مـتـمـيـزـةـ لـلـتـأـثـيرـ وـالـتـغـيـيرـ لـاـ يـكـادـ يـمـلـكـهـ غـيرـهـ،ـ وـلـكـنـهـ لـيـسـواـ الـلـوـحـيدـيـنـ الـمـسـؤـلـيـنـ عـنـ الـدـعـوـةـ وـالـإـلـاصـاحـ،ـ بـلـ يـشـارـكـهـمـ فـيـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ الـجـلـيلـةـ كـلـ قـادـرـ عـلـيـهـاـ مـنـ الـصـالـحـيـنـ مـنـ جـمـهـورـ الـحـاضـنـةـ الـشـعـبـيـةـ وـالـاجـتـمـاعـيـةـ الـتـيـ يـعـيـشـ الـمـسـلـحـوـنـ ضـمـنـهـاـ فـيـ الـقـرـىـ وـالـمـدـنـ،ـ الـذـيـنـ يـخـتـلـطـونـ بـالـمـقـاتـلـيـنـ فـيـعـاـشـوـنـهـمـ وـيـؤـاـكـلـوـنـهـمـ وـيـشـارـبـوـنـهـمـ،ـ وـيـكـوـنـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـهـمـ مـاـ يـكـوـنـ بـيـنـ الـخـلـانـ وـالـأـصـدـقـاءـ مـنـ وـدـ وـقـرـبـ وـصـفـاءـ.

يـاـ أـيـهـاـ النـاسـ:ـ إـنـ فـيـ الـأـمـةـ خـيـرـاـ كـثـيـرـاـ،ـ وـلـرـبـماـ تـرـيـنـ عـلـىـ قـلـوبـ الرـجـالـ الذـنـوبـ الـخـفـافـ أـوـ الـثـقـالـ،ـ وـلـكـنـكـ إـنـ أـحـسـنـتـ جـلـاءـ تـلـكـ الـقـلـوبـ بـالـدـعـوـةـ الـحـكـيـمـةـ وـالـمـوـعـذـةـ الـحـسـنـةـ.ـ اـنـجـلتـ كـمـاـ تـنـجـلـيـ الـمـرـأـةـ فـعـادـتـ نـقـيـةـ صـافـيـةـ كـلـوـبـ الـأـطـفـالـ،ـ فـاسـتـعـيـنـاـ بـالـلـهـ وـتـرـفـقـوـاـ بـالـدـعـوـةـ وـأـحـسـنـوـاـ الـمـقـالـ،ـ وـفـقـمـ وـأـثـابـكـمـ اللـهـ.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: